سورية في القرن السابع عشر

(تابع ما قبله)

وفي الثالث من ابريل وهو يوم سبت النور عاد الكاتب الى كنيسة القيامة ليشاهد فيضان النور على ما يقوله الارثوذكس والارمن فقال

اتينا الكنيسة فوجدناها مزدحمة بجمع غفير من كل الشعوب والالسنة فبذلنا جهدنا حتى بلغنا الرواق المجاور لدير اللاتين ووقفنا هناك نشرف على تلك الجموع واذا بالناس من البهّال يطوفون حول القبر ويزعقون قائلين هيا هيا وقد يطرح بعضهم بعضاً على الارض او يقف بعضهم على اكتاف البعض الآخر ويأتون نحو ذلك من الاعمال الدالة على الخفة او السخافة كأنهم الضحاكون في مشهد الهزل والسخرية . وداموا على ذلك من الظهر الى الساعة الرابعة بعده . وسبب هذه العائلة ان الروم كانوا يريدون منع الارمن عن الاشتراك معهم ورُفع الامر الى القاضي وهو ينظر في اختلافهم ليفصل فيه وقد اتفقوا على هذه الدعوى خمسة آلاف ريال واخيراً حكم القاضي بان يدخل الفريقان القبر المقدس معاً على جاريهما العادة وصدر حكمهُ في الساعة الرابعة بعد الظهر فطاف الروم ثلاثاً حول القبر وتبعهم الارمن ولما انتهى الطواف طارت حمامة فوق قبة القبر وقال لي اللاتين ان الروم اطلقوها لكي يقول الحضور انها علامة ظاهرة لحلول الروح القدس . وحينئذٍ تقدّم نائب بطريرك الروم (لان البطريرك كان في الاستانة) وكبير اساقفة الارمن وفضّا ختوم باب القبر وفتحاه ودخلا واقفلا الباب وراءهما وكثرت الجلبة حينئذٍ واشتد الازدحام عند باب القبر وكل واحد يود ان يكون البادئ في انارة شمعة من النور حالما يفيض حتى عجز الحرس عن ردهم . وفي اقل من دقيقة خرج نور من شق في الباب فعلا الصياح حتى صمّ الآذان وفتح الباب وخرج الاسقفان وفي ايديهما شموع موقدة فاندفع عليهم الناس ليناروا شموعهم منها والحرس يدفعهم بنبابيتهم والذين اوقدوا شموعهم يمرونها تجاه وجوههم ولحاهم مدعين ان نارها لا تحرق مثل النار العادية . ولم تكن الاّ دقائق قليلة حتى اوقدت الشموع في الكنيسة كلها

اما اللاتين فكانوا يقولون لكل من يكلمهم في هذا الموضوع ان فيضان النور ليس الاّ حيلة وخداعاً معيباً

ولما خرجنا وجدنا على الباب اناساً يدهنون مقاطع كبيرة من النسيج الابيض بالشمع

الذائب من الشموع المضاءة و بدبالة فتائلها و يدّعون ان من يكفن بكفن منها لا تمسّهُ النار في الآخرة ولو كان في جهنم

واسهب الكاتب في وصف بقية المشاهد التي شاهدها في بيت المقدس وحولهُ الى العاشر من ابريل وهو آخر ايام الزيارة . قال والاتراك يبيحون الدخول في ذلك اليوم الى كل الاماكن من غير جعل . وكان اليوم الثاني بداءة عيد الفطر فلم يخرج هو ورفاقهُ من الدير ذلك اليوم ولا في الذي بعدهُ خوفاً من الغوغاء وفي الرابع عشر من ابريل زاروا المتسلم بهدية وسألوهُ عن اليوم الذي يسافر فيهِ ليسافروا معهُ وفي حماهُ فقال لهم انهُ يسافر في اليوم التالي فبلغ رئيس الدير كلاً منهم شهادةً بانهُ زار الاماكن المقدسة فاعطاهُ كلٌّ منهم خمسين ريالاً هبةً للدير وجزاء ما لقوهُ فيهِ من حسن الضيافة وساروا مع المتسلم بطريق نابلس ورأوا الفلاحين يفلحون ارضهم لكي يزرعوا قطنهم ومروا على قامة جنين ودخلوا الناصرة صباح الثامن عشر من ابريل واقاموا فيها يومين زاروا فيهما ما فيها وحولها من المشاهد وصعدوا على جبل طابور ثم غادروها وجاؤوا عكاء فباتوا عند قنصل فرنسا وساروا منها الى صيداء ومن صيداء الى دمشق بطريق مشغرة وجب جنين والدهاس الى ان وصلوا نهر بردى فقطعوهُ على جسر فوق دمّر وشاهدوا دمشق من شاهق هناك يطل عليها . وقال الكاتب في وصفها ما ترجمتهُ

من هذا الشاهق ترى دمشق باتم بهائها وجلالها وما من مدينة ابهج منها منظراً . تراها متربعة في سهل فسيح ترامت اطرافهُ حتى لا يصل اليها الطرف واحاطت بهِ جبال لا تكاد العين تبينها لبعدها . وهي في الجانب الغربي من هذا السهل على ميلين من الثغرة التي شقها نهر بردى في الجبال وخرج منها

والمدينة مستطيلة الشكل ممتدّة من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي مخصورة في وسطها وواسعة في طرفيها ولاسيما في طرفها الشمالي الشرقي طولها على ما رأيتهُ بتقدير العين ميلان . وهي حافلة بالمساجد والمآذن حتى المدن الشرقية تحفُّ بها جنائن لا يقلُّ محيطها عن ثلاثين ميلاً فترى كلؤلؤة بيضاء على بساط اخضر . والجنائن كثيرة الاشجار المثمرة تزيدها مياه بردى نضارة وتبرز منها الابراج والمآذن والمصايف كانها نوصوص من خلال الاغصان فتزيدها جمالاً ورواء . والى الشمال منها الصالحية حيث اجمل المصايف وانضر الجنائن

والفضل في جمال دمشق وخصب بساتينها لنهر بردى فانهُ ينقسم عند خروجهِ من الجبل الى ثلاثة فروع الاوسط منها وهو الاكبر يمرُّ في المدينة ويتوزع في شوارعها وبيوتها والفرعان

الآخران يجريان حول البساتين من اليمين ومن اليسار وتخرج منهما فروع كثيرة تتوزع في البساتين كلها فيكون لكل بستان فرع يرويه وتتدفق مياهه فيه على صور تبهج الخواطر وتروق الخواطر

اقمنا على ذلك الشاطئ مدة نتمتع الطرف بذلك المشهد الانيق وتلك الجنة التي اشبهت جنة الخلد حتى شق علينا فراقها لولا ما اشتد فينا من الشوق الى مشاهدة المدينة التي سحرتنا ببهجة فراديسها فكنا بين جاذبين متكافئين جاذب منظور وجاذب منتظر وقد تمتعنا بالاول ولا بدّ لنا من التمتع بالثاني. فنزلنا الى السهل والتقينا بقواس دير الافرنج ولما رأى اننا جمهوراً كبيراً لم يشأ ان يمرّ بنا في وسط المدينة لئلا يغتاظ سكانها اذا رأوا جمهوراً من الافرنج داخلاً مدينتهم فدار بنا في البساتين الى ان وصلنا الى المكان الذي فيه الدير. والبساتين مسورة باسوار من التراب المصنوع قوالب كاللبن طول اللبنة منها ست اقدام وعرضها ثلاث اقدام او اكثر قدماً كان منها يكفيان سوراً للبستان وهو رخيص ولا تبلوه الايام

وقمنا في الثامن والعشرين من ابريل وجئنا في اسواق المدينة فوجدناها ضيقة كما تكون في البلدان الحارّة. وظاهر البيوت مبني باللبن كاحقر بيوت الفلاحين واذا كثر المطر فيها تساقط الطين من الجدران فصارت به الشوارع حمأة لا تسلك. ومن الغريب اكتفاء السكان ببناء بيوتهم من الخارج على هذه الصورة وعلى مقربة منهم جبال من اجود الصخور الصالحة للبناء. ولا ارى تعليلاً لذلك الاّ بان الذين بنوا اولاً خافوا ان تفوتهم الفرصة وتؤخذ الارض منهم فتعجلوا واختصروا وبنوا بما وصلت اليه يدهم من غير مشقة وجرى خلفاؤهم على خطتهم. ولكنك قد تجد في هذه الجدران ابواباً قوائمها من الرخام المنقوش او المرصع على غاية الاتقان والجمال. جدران من الطين وابواب من الرخام وهنا منتهى العجب

وداخل البيوت تخالف لظاهرها على خط مستقيم فانك تجد هناك داراً كبيرة مربعة غرست فيها الاشجار الذكية الرائحة حول فسقية من الرخام تتدفق منها المياه وحول الدار غرف ودواوين وارض الدواوين ومقاعدها وجدرانها من الرخام المجزّع والمنقوش نقشاً بديعاً والسقوف بديعة النقش والتذهيب على الاسلوب العربي اما البسط العجمية الفاخرة فحدث عنها ولا حرج. والدواوين كثيرة حول الدار حتى يختار الجالس ما يشاء منها حسبما يطلب الشمس او الظل

هذا وصف بيت رأيته وقد بلغني ان اكثر بيوت الكبراء على نسقه

ثم ذهبنا لمشاهدة كنيسة مار يوحنا المعمدان وهي الآن الجامع الاموي ولم يسمح لنا

بالدخول اليها ولكننا رأيناها من ابوابها الثلاثة والابواب كبيرة عالية جدًّا واغلاقها مصفحة بالنحاس تغطيها الكتابات العربية وفيها صورة كاس ويظن انها شعار المماليك . والى الشمال دار فسيحة لا اظن انها تقل عن مئة وخمسين يردًّا طولاً وثمانين عرضًا مرصوفة كلها بالبلاط والكنيسة الى الجنوب منها وعلى جهاتها الثلاث الاخرى رواق على اعمدة من المرمر تجاهها من النوع الكورنثي وهي عالية جدًّا وجميلة . والجانب الجنوبي من الكنيسة (اي المسجد) ملاصق للسوق وفيه ثلاث بلاطات بينها اعمدة صقيلة فائقة في بهائها . وفي هذه الكنيسة رأس يوحنا المعمدان وذخائر أخرى دينية لا يسمح لاحد برؤيتها

ومضينا من هناك الى قلعة دمشق وهي حسنة البناء طولها ٣٤٠ خطوة وعرضها اقل من ذلك قليلاً واذن لنا في دخول الباب فرأينا امامه اكوامًا من الاسلحة القديمة من اسلاب المسيحيين وبينها مقلاع روماني قديم

ومررنا في الاسواق فرأيناها مزدحمة بالناس وليس فيها شيء يستحق الذكر . وقمنا صباح اليوم التالي (الخميس في ٢٩ ابريل) نشاهد طلعة الحج وكان ارسلان باشا والي طرابلس قد جعل اميرًا للحج هذه السنة فاستأجرنا دكانًا وقمنا فيه لنرى منه الموكب فمرَّ امامنا اولاً ٤٦ شيخًا يحمل كلٌّ منهم بيرقًا احمر واخضر او اصفر واخضر ووراءهم ثلاث فرق من السكان ووراءهم جنود من الصباحية ووراءهم ثماني فرق من المغاربة معهم ست مدافع صغيرة ووراءهم جنود قلعة دمشق بدروع من الزرد ونحو ذلك من الاسلحة القديمة ووراءهم الانكشارية واغاواتهم وكلهم فرسان على خيولهم ووراءهم سنجق الباشا وهو ذنبا فرسين يحملهُ آغا السراي ثم ست خيول مسرجة وعلى سرج كل فرس منها ترس مذهب . ومرَّ المحمل بعد هذه الخيول وهو قبة من الحرير الاسود على ظهر جمل كبير تتدلى سجفها حولهُ حتى تكاد تصل الى الارض وعلى رأس القبة كرة من الذهب وحولها عصائب مذهبة . ويقال ان داخل القبة نسخة من القرآن تحمل الى مكة وتعاد منها ومعها بساط ثمين يغطى به قبر النبي . ومرَّ وراء المحمل فرق من الجنود وامير الحج ووراءهم عشرون جملاً محملة وبها انتهى الموكب واستمرَّ مروره امامنا ثلاثة ارباع الساعة

وذهبنا بعد ذلك الى مرج فسيح غربي المدينة فيه مارستان ومسجد عظيم ومررنا سيرًا رجوعنا على حمام جميل البناء والنقش وقبوة كبيرة تسع خمس مئة نفس وهي قسمان قسم للصيف وقسم للشتاء

وزاروا الاماكن الدينية بعد ذلك كالبيت الذي يقال انهُ بيت حنانيا والمكان الذي

يقال ان بولس الرسول رأى الرؤيا فيه والباب الذي يقال انهُ دُلّي منهُ في سلة . وذهبوا الى البساتين راكبين حميراً لانهُ لم يكن يباح لمسيحي ان يركب فرساً وزاروا دير صيدنايا وقالوا انهم لم يجدوا في ذلك الدير شيئاً يستحق الذكر غير الخمر المعتقة والدير من عهد الامبراطور يستنيانوس . وغادروا دمشق في الثالث من مايو ومرّوا على مكان يقال انهُ قبر هابيل طولهُ ثلاثون يرداً ووصلوا الى بعلبك في الخامس من الشهر ونصبوا خيامهم عند رأس العين . واسهب في وصف بعلبك ولكنهُ لم يذكر شيئاً مما لم نذكرهُ قبلاً . وخرجوا منها في اليوم التالي ومروا في طريقهم على بركة الينونة وصعدوا في الجبال ونصبوا خيامهم بين الثلوج ووصلوا طرابلس في اليوم التالي وزاروا قلعتها ووجدوا فيها الشيخ يونس الخازن الذي خوزقهُ والي طرابلس لانهُ اسلم ثم عاد الى دينهِ

وذهب من طرابلس الى الارز لانهُ لم يمر بهِ في مجيئهِ اليها وقاس جذع ارزة كبيرة فوجد محيطهُ ١٢ يرداً ونصف قدم وذهب من الارز الى قنوبين وقابل البطريرك اصطفان الاهدني ووصفهُ بالعلم والتقوى وعاد من قنوبين الى طرابلس ومنها الى حلب

وقد اسهب في وصف الاماكن المقدسة في القدس وحولها وفي وصف طريقهِ من القدس الى دمشق فطرابلس ووصف بساتين دمشق وقلعة بعلبك لكنهُ لم يذكر شيئاً نتعلق بذكرهِ فائدة تاريخية فاغضينا عن اسهابهِ واجتزأنا بما تظهر بهِ حالة البلاد في ذلك العصر كما يراها الاجنبي عنها

الاكتشافات الحديثة الجديدة

بين الخطب التي القيت امام مجمع تقدم العلوم البريطاني خطبة للسر هنري رولنسن موضوعها الاكتشافات الحديثة الجديدة ذكر فيها كيف توصل الباحثون الى اكتشاف آثار الحثيين فقال ان اول اكتشافاتهم من هذا القبيل كان في بوغاز كوي واويوق في برّ الاناضول وذلك بين سنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٤٥ حيث وجدت آثار مدينتين عظيمتين ثم كشفت آثار غيرها تشبهها كثيراً في نقوشها وكتاباتها في مدينة حماه وعلى مقربة من ازمير وفي العراق . ونسب العلماء هذه الآثار الى امة تدعى خيثا او خطي ورد ذكرها كثيراً في